

## موضوعات حول المادية التاريخية

### الحلقة الثانية

#### الموضوعة الرابعة: في العلاقة بين المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية

إن الماركسية نظرية ومفهوم منسجم ومنطقي للعالم، وتضم المادية الجدلية والمادية التاريخية، والمذهب الاقتصادي الماركسي ونظرية الاشتراكية العلمية. وقد تعرضت هذه النظرية الثورية للبروليتاريا، وعبر أزمنة مختلفة، لمحاولات عديدة من طرف كل التيارات التحريفية والتحريفية الجديدة، لضرب وحدة تلك المكونات التي تشكل منها النظرية الماركسية.

لقد أعلن تحريفيو الأممية الثانية أن الماركسية ليست لها فلسفة، ومن تم بنوا على ذلك الفكرة التي لا زال يسير عليها حفدتهم من التحريفيين الجدد، القائلة بأن المذهب الاقتصادي لماركس ونظرية الاشتراكية العلمية بإمكانها أن تتكيف مع أي فلسفة.

ويعتبر كارل كاوتسكي (1854 - 1938) مؤسس نظرية الماركسية كمنهج لا علاقة له بالفلسفة، الذي ينهل منه الآن كل التحريفيين. في كتابه "المفهوم المادي للتاريخ"، يقول كاوتسكي "أن في نظر ماركس وانجلز ليس مهما أن نقبض الحقيقة، بل الأهم أن نجد الطريق المؤدي إليها، أي المنهج".

هكذا بعدما تم فصل المنهج عن المفهوم للعالم (المنهج جزء لا يتجزأ منه)، يقول كاوتسكي:

"إن المفهوم المادي للتاريخ ليس مرتبطاً بالفلسفة المادية، يمكن مزاجته بأي فلسفة تتأقلم مع المنهج المادي الجدلي، أو على الأقل، ليست في تناقض لا يتوافق مع هذه الأخيرة. ليس مهماً أن تتباها هذه الفلسفة بكونها مادية، أو تعارض المادية الميكانيكية، أو أن تفضل تسمية نفسها بالواقعية، أو الواحدية، وضعية أو حسوية، تجريبية أو نقدية تجريبية".

فحسب كاوتسكي يمكن للمفهوم المادي للتاريخ أن يرتبط، ليس فقط بوجهات نظر ماخ (1891-1938) وأفيناريوس (1843-1896)، بل كذلك بوجهات نظر فلاسفة آخرين.

على قاعدة هذا الطرح الكاوتسكي، استبدل التحريفيون الكانطيون الجدد، الاشتراكية العلمية بما أسموه "الاشتراكية الأخلاقية"، بالمعنى، الذي أصبح فيه الاشتراكية غير ذات أساس علمي. وقد حصل هذا في نفس الوقت الذي كان فيه أنصار ماخ يعبدون الطريق لتوحيد الاشتراكية مع الدين. وفي معرض رد لينين في صراعه ضد التحريفية على الواجهة الفلسفية، أكد هذا الأخير على وحدة المادية الجدلية والمادية التاريخية، باعتبارهما غير منفصلان عن بعضهما البعض (أي أنهما كل لا يتجزأ). (انظر في هذا الجانب كتاب لينين الشهير "المادية والمذهب النقدي التجريبي"). وبطبيعة الحال فالسؤال الذي يطرح هو:

### أين يقوم الارتباط الداخلي غير القابل للانفصال بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية؟

- 1) إن المادية التاريخية هي حصيلة تطبيق المادية الجدلية في دراسة الحياة الاجتماعية، مما يعني:
  - أنها تقف بالضرورة على نفس القاعدة الفلسفية، أي المفهوم المادي للعالم.
  - يعود الفضل للمادية التاريخية في جعل هذا المفهوم ذا طابع مكتمل ومنسجم. فبعد نشوء المادية التاريخية أصبح بإمكان المادية الفلسفية أن تقدم شرحاً علمياً، ليس فقط لظواهر الطبيعة بل كذلك لظواهر الحياة الاجتماعية، وعلى هذا الأساس فالمادية التاريخية جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية، بدونها لا

يمكن الحديث عن المفهوم المادي الماركسي - اللينيني للعالم. فالمادية التاريخية حلت المسألة الأساسية للفلسفة بالنسبة للمجتمع، هي علاقة الوعي والكائن (أو المادة والفكر)، وفي المجتمع علاقة الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي.

2) تحتل مسألة العلاقة بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي في المادية التاريخية نفس العلاقة التي تحتلها العلاقة بين الكائن والوعي في المادية الجدلية، فكما الحال في الطبيعة نلاحظ وجود مجموعتين من الظواهر داخل المجتمع: الظواهر المادية والظواهر الفكرية، من جهة توجد الحياة المادية للمجتمع (الناس ينتجون الخيرات المادية الضرورية لحياتهم: الغذاء، اللباس، بناء المساكن و وسائل النقل ...)، وفي سيرورة الإنتاج تنبني بين الناس علاقات اقتصادية تضم الإنتاج والتبادل وتوزيع المنتوجات، وبشكل موازي تنبني كذلك علاقات على أساس الحاجة إلى إعادة إنتاج النوع البشري، حيث تأخذ السيرورة البيولوجية أشكالاً اجتماعية متنوعة. بكلمة أخرى، يعيش الناس، ويعيدون إنتاج نوعهم، ينتجون ويتبادلون المواد الضرورية لحياتهم. وتشكل مجموع هذه الأنشطة الحياة المادية للمجتمع، أو ما نطلق عليه الوجود الاجتماعي.

ومن جهة أخرى هناك مظهر آخر للحياة الاجتماعية، وهو الحياة الفكرية أو الوعي الاجتماعي (الأفكار الاجتماعية، الآراء والعواطف المعبر عنها في أشكال مختلفة من الوعي الاجتماعي، المؤسسات السياسية والقانونية، المبادئ الأخلاقية، الاختيارات الجمالية، الإبداع الفني، المعتقدات الدينية، المذاهب الفلسفية...).

لتقديم تفسير علمي للتطور الاجتماعي يلزمنا الجواب على السؤال التالي:

### أيهما من الظاهرتين السابقتين هو الأول أو الأسبق؟ هل الظواهر المادية أم الفكرية؟

إنها المسألة الأساسية في علم الاجتماع، والأجوبة عنها تؤدي إما إلى تبني التصورات المادية أو المثالية للتاريخ. والجواب عن هذا السؤال يبرز إلى أي مدى هناك وحدة بين المادية الجدلية والمادية التاريخية. فالأولى تقر بأن الكائن الموضوعي والواقعي غير مرتبط في وجوده بالوعي (أي مستقل عنه)، والثانية تقر

بأن الكائن الاجتماعي كواقع موضوعي مستقل عن الوعي الاجتماعي. وفي كلا الحالتين معا، فالوعي وكذلك الوعي الاجتماعي يعتبران انعكاسا للواقع الموضوعي.

وفي مجال الحياة الاجتماعية ينطرح السؤال التالي:

**هل يمكن أن يوجد في المجتمع علاقات مستقلة عن الوعي الاجتماعي، علاقات،**

**بدل أن تكون محددة بالوعي الاجتماعي، تكون هي التي تحدده على النقيض من ذلك؟**

إن المادية التاريخية تجيب بنعم، ذلك أن مبادئ المادية الفلسفية قد تم تعميمها على دراسة المجتمع الإنساني، ولكن باعتباره ميدانا خاصا للعالم المادي. إن الأطروحات الأساسية للمادية التاريخية هي تطوير وتجسيد للأطروحات المادية الديالكتيكية مطبقة على دراسة الحياة الاجتماعية، إنها مرتبطتان بشكل لا انفصام فيه، ويكمن سبب تطورهما في الحاجيات العملية للنضال الثوري لدى ماركس وانجلز، تلك الحاجيات التي جعلتهما يكتشفان ضعف المثالية الهيجلية وتناقضاتها، من قبيل عدم التوافق بين المفهوم المثالي للدولة باعتبارها تعبيراً عن العقل الكوني، و وقائع الحياة الاجتماعية التي تهيمن عليها الصراعات الطبقة وتصادم المصالح المادية المتعارضة. من هذا المنطلق شكل تحليل المشاكل الاجتماعية دوراً حاسماً في بلورة ماركس لتصور جديد للعالم، فالانتقال التدريجي لماركس من المثالية إلى المادية، ومن موقف الديموقراطية الثورية إلى الإيديولوجية الشيوعية، انبثق لأول مرة في مقالاته في "الحوليات الفرنسية - الألمانية"، ووجد تتويجه في مؤلفات كتبها بالاشتراك مع انجلز، من قبيل "العائلة المقدسة" و"الإيديولوجية الألمانية"، حيث تبلورت أولى الأطروحات والمبادئ الأساسية للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.

**إن المادية التاريخية مستحيلة بدون المادية الديالكتيكية والعكس صحيح.**

ولم تكتمل المادية الفلسفية كبناء يقدم تحديدا كاملا وعماما لكل ظواهر العالم إلا في اللحظة التي تم فيها تطبيق المبادئ المادية على دراسة المجتمع، وبلغة أخرى، فليس إلا مع بلورة ماركس وانجلز للمادية التاريخية، قد بلغ بناء المادية الفلسفية اكتماله، وبذلك انبنى مفهوم للعالم مادي منسجم، فمثلا لم يفهم دور الممارسة فهما علميا إلا بعد فهم أهمية النشاط الاجتماعي والتاريخي للناس، ودور ذلك في التقدم من أجل المعرفة، وهذا كله على قاعدة المادية التاريخية.

إن المادية الديالكتيكية قد كشفت معنى البراكسيس كأساس وهدف للمعرفة ومعيار الحقيقة، تلك المعرفة التي لم يحصرها ماركس في المختبرات، كما فعل فرنسيس باكون الفيلسوف الانجليزي، بل جعلها تضم مجموع النشاط الاجتماعي والتاريخي للناس، ذلك النشاط الهادف إلى تغيير الطبيعة والمجتمع.

إن الفلسفة عند ماركس هي سلاح التغيير الثوري للعالم. إن الفهم المادي للتاريخ يعطي القيمة الكاملة للفكرة العبقريّة لدى ماركس القائلة:

**"لم يعمل الفلاسفة إلا على تفسير العالم بأشكال مختلفة، بل يجب العمل على تغييره".**

يظهر مما سبق، أن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، مرتبطان أشد الارتباط بشكل عضوي لا انفصام فيه، إنهما معا جزءان لا يتجزأان من مفهوم واحد للعالم، وعلى قاعدة هذا الطرح، وبناء عليه، فكل المحاولات للفصل بينهما محكوم عليها بالفشل.

علي محمود

2-5-2017